

أدب البحر همنغواي نموذجاً

لقد احتل البحر أهمية كبيرة باعتباره موضوعاً خصباً للتصور والتخيل، فكان ملهماً للمبدعين وشغل مساحة وافرة من التراث الإنساني، وأدكى مخيلة البشر عبر القرون. فتشكلت لنا صور مختلفة لبحار العالم في ارتباطها ببلدان وشعوب عديدة ذات تجارب وعادات وتقاليد متنوعة. وهذه الصور لم تبرز لنا الشكل الخارجي للبحر من حيث الشواطئ والسواحل بمن فيها وما فيها فحسب، بل أظهرت أيضاً أعماق البحار وما فيها من مخلوقات عجيبة وأسرار. والواقع أن الدراسات العلمية تشير إلى أنه لم يكتشف من أسرار البحار والمحيطات إلا نسبة ضئيلة إلى يومنا هذا.

وقد احتل البحر بوصفه موضوعاً أدبياً مساحة واسعة من تراث الشعوب وقصصها وأساطيرها على مر العصور. فالبحر هو ذلك العالم الساحر الجميل الغامض المخيف والقاتل الذي كتبت حوله النصوص وعبرت عن جماله وخطورته حتى تشكل ما يمكن أن نسميه أدب البحر، وقد كان للأدب الأمريكي نصيب وافر في الكتابة عن عوالم البحر هذه وتجسيد قضية الصراع الإنساني مع قوى الطبيعة.

من أشهر الأعمال الأدبية البحرية في الأدب الأمريكي رواية "موبي ديك" للروائي هرمان ملفيل التي تروي سعي سفينة صيادين لصيد حوت أبيض عملاق في نهاية القرن 19 تنتهي بمقتلهم جميعاً باستثناء بحار واحد. ورواية "الشيخ والبحر" للروائي ارنست همنغواي.

ارنست هيمنجواي:

روائي وقصاص أمريكي يعد من أشهر أدباء القرن العشرين، كتب الرواية والقصة القصيرة، وقد غلبت عليه النظرة المتشائمة السوداوية للعالم في البداية، إلا أنه جدد أفكاره، وعمل على تمجيد القوة النفسية لعقل الإنسان في رواياته، وغالباً ما تصوّر أعماله هذه القوة النفسية وهي تتحدى قوى الطبيعة في صراع مرير في جو من العزلة والانطوائية.

ولد أرنست هيمنجواي في ٢١ يوليو ١٨٩٩م في ولاية إلينوى الأمريكية من أب طبيب مولع بالصيد والتاريخ الطبيعي، وأم متزمتة ذات اهتمام بالموسيقى.

كان متعلقا بالطبيعة منذ صباه، وفي سن مبكرة دخل همنغواي معترك الحياة المهنية حيث عمل صحفيا بجريدة كنساس ستار، ثم تطوَّع في الصليب الأحمر الإيطالي عام ١٩١٨ م في أواخر الحرب العالمية الأولى، حيث أصيب بإصابات خطيرة أقعدته أشهراً في المستشفى وخضع لعمليات جراحية كثيرة، تحصل إثرها على رتبة ملازم مع وسام الشجاعة.

في عام ١٩٢١ م عمل مراسلا لصحيفة تورنتو ستار في شيكاغو، ثم هاجر إلى باريس عام ١٩٢٢ م حيث عمل مراسلا أيضا، وأجرى مقابلات مع كبار الشخصيات مثل وزير خارجية فرنسا كليمانصو، والزعيم الإيطالي موسوليني.. كما تعرّف على أدباء فرنسيين في وقت كانت الحركة الثقافية الفرنسية في العشرينيات تعيش عصرها الذهبي.

بدايته الأدبية كانت في العام ١٩٢٣ م بعد نشر أولى مجموعاته القصصية، لكن أول عمل لفت انتباه الجمهور والنقاد لم يأت سوى عام ١٩٢٦ م وهو رواية "الشمس تشرق هي الأخرى" التي لاقت نجاحا منقطع النظير، وقد شجعه هذا النجاح على نشر مجموعة قصص سنة ١٩٢٧ م هي "الرجل العازب".

إثر عودته لأمريكا حيث عائلته، انتحر والده بطلقة بندقية. في عام ١٩٢٩ م عاد مع زوجته الثانية بولين بيفر إلى أوروبا مجددا حيث نشر واحدا من أهم أعماله رواية "وداعا للسلاح"، وقد نجح هذا العمل وحوّل إلى مسرحية وإلى فيلم سينمائي بسرعة، وهذا ما دفعه لنشر عمل أدبي جديد فنشر عام ١٩٣٢ رواية "وفاة في الظهيرة".

ثم بدأ هيمنجواي في عام ١٩٣٣ م يتردد باستمرار على جزيرة كوبا، وفيها كتب عمله "الفائز لا ينال شيئا"، ثم في عام ١٩٣٥ م نشر رواية "روابي إفريقيا الخضراء" وفيها يتحدث عن رحلة قادته لشرق القارة لصيد الطرائد البرية، وهي هوايته المفضلة.

ما بين عامي ١٩٣٦ م إلى ١٩٣٨ عمل مرة أخرى مراسلا حربيا لتغطية الحرب الأهلية الإسبانية، وقد سمحت له هذه المهمة بالتعبير عن عدائه الشديد للفاشية الصاعدة آنذاك (موسوليني، هتلر، فرانكو)، بل دخل الحرب ضدهم وخدم على متن سفينة حربية أمريكية كانت مهمتها إغراق الغواصات الألمانية.

تزوج للمرة الثالثة بالمراسلة الصحفية على الجبهة الروسية - الصينية مارتا جيلهورن عام ١٩٤٠، وكانت هذه السنة نفسها التي نشر فيها روايته "لمن تقرر الأجراس" والتي حققت نجاحا واسعا.

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية عام 1945 عاد مجددا للعيش في كوبا، لكنه بدأ يعاني من اضطرابات عقلية، ولم يغادر كوبا إلا مع انتصار ثورة فيدال كاسترو الشيوعية سنة 1959، والواضح أنّ فكرة رواية "الشيخ والبحر" راودته أثناء إقامته هذه بكوبا وممارسته صيد السمك بالقارب هناك.

في صباح يوم ٢ يوليو ١٩٦١م أطلق هيمنجواي النار على نفسه من بندقية أبيه كلارنس، وهي نفسها البندقية التي استخدمها أبوه من قبل في الانتحار. والواقع أنّ أسرة هيمنجواي لها تاريخ طويل مع الانتحار. فبالإضافة إلى والده، انتحرت أخته غير الشقيقتين أورسولا وليستر، وكذلك حفيده مارغا ووك. ولذا يعتقد بعض النقاد في وجود مرض وراثي في العائلة يسبب الاكتئاب وعدم الاستقرار العقلي.

أشهر أعماله:

الروايات (10): العجوز والبحر، سيول الربيع، الشمس تشرق هي الأخرى، وداعا للسلاح، الموت بعد الظهر، تلال أفريقيا الخضراء، أن تملك ولا تملك، لمن تقررع الأجراس، عبر النهر نحو الأشجار، ثلوج كليمنجارو. المجموعات القصصية (4): رجال بلا نساء، الطابور الخامس، الفائز لا ينال شيئا، القتلة. روايات نشرت بعد وفاته (2): وليمة متنقلة، جزر في النهر.

أهم الجوائز التي حصل عليها:

= جائزة بوليتزر الأمريكية للأدب عام ١٩٥٣م.

= جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٥٤م.

هيمنجواي والحروب:

تأثر بتجاربه الشخصية في الحروب فقد شارك في الحرب العالمية الأولى، والحرب العالمية الثانية، والحرب الأهلية الإسبانية، وتميز أسلوبه بالبساطة والقوة، واستخدام الجمل القصيرة، وترك بصمته على الأدب الأمريكي والعالمي. وشخصيات همنغواي دائما أبطال يتحملون المصاعب دونما شكوى أو ألم، وتعكس هذه الشخصيات طبيعة هيمنجواي نفسه.

من أقواله المأثورة:

- السعادة عند الأذكىاء هي أندر شيء على الإطلاق.
- يمكن للإنسان أن يتحطم لكن لا ينهزم.
- على الإنسان أن يتلقى الكثير من العقاب كي يؤلف كتاباً مضحكاً حقاً.
- لا يوجد أي ذخيرة ضد القيل والقال، إنها مثل الضباب والريح تهب وتزيحها بعيداً ثم تحرقها الشمس.
- عندما تكون واعياً فافعل دائماً ما تقول إنك ستفعله عندما تكون ثملاً، فهذا سيعلمك الصمت.
- مصارعة الثيران هي الفن الوحيد الذي يكون فيه الفنان عرضة لخطر الموت.
- لا تظن أبداً أن الحرب مهما كانت ضرورية أو مبررة ليست جريمة.
- يحتاج الإنسان إلى سنتين ليتعلم الكلام، وخمسين سنة ليتعلم الصمت.

رواية العجوز والبحر:

- "العجوز والبحر" واحدة من الأعمال العالمية الخالدة في عصرنا، والتي تدور أحداثها في الأربعينيات في منطقة الكاريبي وتحديداً في خليج كوبا الذي يقع جنوب فلوريدا الأمريكية على المحيط الأطلسي.
- ليس ثمة أحداث كثيرة في رواية "العجوز والبحر"، فأحداثها محدودة وبطلها واحد هو الصياد الشيخ سانتياغو ومسرحها مختصر: قارب سانتياغو القديم والبحر المحيط، وموضوعها رغبة سانتياغو في اصطياد سمكة كبيرة.
- الصياد عجوز جاوز الثمانين من العمر، لكنه لا يزال متمتعاً بالحيوية والنشاط. كان قد أمضى أكثر من أربعة وثمانين يوماً لم يظفر بسمكة واحدة، رافقه في الأيام الأربعين الأولى ولد صغير اسمه مانيلو كان بمثابة مساعد له، لكن عائلة الولد أجبرته على قطع صلته بالصياد العجوز على أساس أنه منحوس ولا فائدة من العمل معه، فبدأ الغلام العمل في زورق آخر مع صياد محظوظ واستطاع فعلاً أن يصطاد بضع سمكات في أسبوعه الأول.

لكن أشد ما كان يؤلم الغلام هو رؤية العجوز المسكين يرجع إلى الشاطئ مساء كل يوم وزورقه خاوي الوفاض، لم يكن يملك إلا أن يسرع إليه ليساعده في جمع حباله

وشبّاهه وعدّة الصيد وطّي الشراع حول الصاري، وكان الشراع يبدو له كأنه علم أبيض يرمز إلى الهزيمة التي طال أمدها.

كان العجوز والصبي صديقين يلتقيان ويتحدثان طويلا، وكان الصبي يحب الشيخ كثيرا ويحبّ خدمته ورعايته. لكن الصيادين الآخرين في القرية من الشباب كانوا يسخرون من العجوز ومن سوء حظه، لكن المسنين كانوا يتعاطفون معه ويحترمونه، العجوز من جهته كان يقابل الجميع بالصمت والتجاهل.

تبدأ الرواية في الصباح الذي أحضر له فيه الصبي طعاما إلى كوخه القديم حتى يتقوى للصيد، وحمل الصبي الأدوات والأغراض وأوصلها إلى المركب، وانطلق العجوز يبشر نفسه بصيد كبير بعد أيام النحس الطويلة التي مرت دون أن يصطاد شيئا.

في هذا اليوم الخامس والثمانين يراوده أمل غامض بأنّ الحظ سيحالفه أخيرا وسيصطاد سمكة كبيرة، خرج من ميناء هافانا بقاربه وحيدا كعادته قبيل بزوغ الشمس، وتوغل في البحر عازما على الوصول إلى منطقة لم يصل إليها من قبل، عله ينجح في اصطياد سمكة كبيرة يجني منها ربحا كبيرا يعيد إليه كبريائه وسمعته بين أهالي القرية، بعد محاولات فاشلة تتعلق أخيرا بخطافه سمكة ضخمة، بل ضخمة جدا أكثر مما يجب بالنسبة إلى قاربه الصغير، فتسحب القارب وراءها ولا تصعد للسطح طيلة يومين، ويستطيع سانتياجو بخبرته أن يعرف نوع السمكة وحجمها من سرعة القارب وهي تسحبه.

يستمر سانتياجو في المقاومة والتمسك بصيده الثمين مدة يومين مع معاناة الجوع والعطش والتعب، وتتقرح يده من شدة التمسك بحبل الصيد، وفي اليوم الثالث تخرج السمكة على سطح البحر وقد يئست أخيرا من المقاومة، هنا يستطيع سانتياجو سحبها بهدوء إلى جانب المركب وفي اللحظة المناسبة يطعنها برمحها ويقتلها، وبما أنّ السمكة أكبر من مركبه يقوم بربطها إلى الحافة جانبا ويبدأ رحلة مضيئة للعودة للشاطئ، لكن أسماك القرش تتجمع حوله وتسعى للنيل من لحم السمكة الضخمة وقد هيّجتها دماؤها، وعبثا يقوم سانتياجو بمحاولات مستميتة للدفاع عن سمكته، ويتمكن من قتل بعض القروش لكن عددها كبير، أخيرا عندما يصل للشاطئ متعبا جائعا يرى بعينه أنه لم يتبق منها سوى هيكلها العظمي ورأسها الصلب شاهدا على ضخامتها.

يطوي الشيخ شراع مركبه، ويجمع أدواته وأغراضه، ويعود إلى كوخه المتواضع بخطوات بطيئة متعبة، ويستلقي مباشرة على فراشه البسيط طلبا للراحة والنوم وقد شارف

على الهلاك.

في الصباح يرى الصيادون مركب الشيخ مع الهيكل العظمي للسمة الكبيرة ورأسها الهائل، ورغم أنّ الصبي قد منعه أبوه من مرافقة الصياد العجوز، إلا أنّ الصبي يزوره في كوخه كعادته كل صباح، ويحضر له كالعادة بعض الطعام والدواء، ويخبره أنّ عليه أن يسترد عافيته بسرعة لأن هناك الكثير ليتعلمه منه عن أسرار البحر، معتبرا إياه أعظم صياد على الإطلاق وقد أثبت ذلك.

والواقع أن العجوز يتمتع بإيمان ديني قوي، وهو شخص مفعم بالأمل والشجاعة والصبر، مؤمن بالقدر، ومع أنه دمر جسديا في معركته القاسية مع السمكة الضخمة إلا أنه لا يشعر باليأس ولا الغضب.

تحليل:

تلمع عبقرية هيمنجواي وهو يمعن في وصف المواقف والتفاصيل الدقيقة التي تتكرر هي نفسها من صفحة إلى أخرى، ولكن في لغة تبدو في كل مرة جديدة مغرية للقارئ. ما يجعل القارئ مشدودا إلى صفحات الرواية ومنبها حتى اللحظة التي يتنفس فيها هو والصياد الصعداء.

ما إن تحرك حبل الخطاف بقوة واهتزاز حتى يدرك العجوز أنّ الصراع قد بدأ، فالسمكة كبيرة قوية مهيبة لكنها بدلا من أن تستسلم تبدأ في سحب المركب وراءها. لا يجزع سانتياجو ولا يتردد ويواجه الوضع بكل صبر وشجاعة.

الرواية نظر إليها النقاد دائما بصفتها رواية رمزية أكثر منها واقعية، وقد كتبت بلغة ساحرة ذات نبض ومبتكرة، اهتم هيمنجواي بالسرد الوصفي في تصوير الملامح الجسدية للبطل، واهتم بتتابع الأحداث في رحلة الصراع، مع دقة التصوير وبراعته، واستخدام معارف ومصطلحات تقنية كثيرة من عالم البحر والصيد وأنواع الأسماك والأحوال الجوية وتيارات المحيط وتقنيات الملاحة.

كما أبدع في تصوير القروش وأسنانها وأنواعها ووصف شراستها، وأظهر براعة في التعبير عن عظمة الإرادة الحديدية للصيد وتقنياته للحفاظ على برودة أعصابه والتعامل مع آلامه الجسدية الكبيرة، واصراره على الانتصار.

ما يلفت الانتباه في هذه الرواية بساطة اللغة وارتباطها بالواقع، ومزجه مزجا مذهلا

بين اللغة الرمزية واللغة الواقعية، جسدت منظور الكاتب للحياة والطبيعة القاسية حيث البقاء للأقوى والأكثر حيلة وعناداً.

اسقاط: السمكة الكبيرة هي عبقرية وابداع الكاتب الذي لا يقدره ويحترمه النقاد. القروش. تجسد القصة نضال الإنسان وتحديه لقوى الطبيعة، وقدرة الايمان والصبر على تحدي الصعاب مهما كانت قاسية.

مقاطع من نص الرواية:

"أيتها السمكة إنني أحبك وأحترمك كثيراً، ولكنني سأصرعك حتى الموت قبل أن ينتهي هذا اليوم" وقال في حديثه "للتعلق بهذا الأمل" وأقبل طائر صغير من الطيور المغردة قادماً من الشمال، وحلّق على مقربة من سطح الماء، فأدرك العجوز أنّ الطائر قد بلغ آية العناء. واستراح الطائر على صدر الزورق مستقراً عليه. ثم لم يلبث أن طار مطوّفاً حول رأس العجوز ثم راق له أن يقف على الحبل. وسأله العجوز: "ما عمرك؟ هل هذه رحلتك الأولى؟" وظلّ الطائر يتطّلع له إذ هو يتكلّم ثم راح يقبض بقدميه الرقيقتين على الحبل، فقال له العجوز: "إنّه ثابت كلّ الثبات وما كان لك أيّها العزيز أن تتجشم كلّ هذا العناء في ليلة كهذه بلا ريح، ولكن حدّثني لماذا تأتي الطيور إلى هنا؟ وحدّث العجوز نفسه أن الصقور تفدّ إلى البحر لتلتقي بمثل هذا الطائر ولكنّ هذا الطائر لم يقل شيئاً لأنّه لا يفهم لغته، ولا بدّ أن يعرف قصة الصقور يوماً ما، ثم قال للطائر: "خذ نصيبك من الراحة أيّها الطائر الصغير ثم اذهب إلى موعدك مع القدر كأيّ إنسان أو كأيّ طائر أو كأية سمكة، وراق للعجوز أن يثرثر لأنّ ظهره كان قد تصلّب واشتد به الألم أثناء الليل.

وعاد يقول للطائر اغرب عن مأواي إذا شئت. ويؤسفني أنني لا أستطيع نشر الشراع لأخذك فيه مع هذه النسمة الخفيفة التي بدأت تهفو على أنني أحسّ الآن أنّ معي صديقاً. كان الظلام قد أرخى سدوله إذ إنّ الظلام يهبط سريعاً بعد الغروب في شهر سبتمبر، ومالّ العجوز إلى الأمام فاستلقى على لوحة حنية الزورق قدر ما استطاع. وطلعت النجوم الأولى في السماء، ولمحّ العجوز بينها نجماً لا يعرف اسمه وإن كان يعرف من أمره ما يُشير إلى أنّ هذه الوحدة تقترب من نهايتها ولن يلبث أن يجد نفسه بين أصحابه النائمين، وقال العجوز "هذه السمكة صاحبتني هي الأخرى. إنني لم أر أو أسمع بمثلها في حياتي.. ولكن لا بدّ لي من قتلها من حسن الحظ.

إننا لا نحاول قتل النجوم. وجعل يفكر محدثا نفسه تصوّر لو حاول الناس كلّ يوم أن يقتلوا القمر أنّ القمر يستطيع أن يهرب ويلوذ بالنجاة، ولكن تصوّر لو بذل إنسان جهد يومه ليقتل الشمس. من حسن الطالع أننا ولدنا هكذا، ثم عاوده الرثاء للسمة التي لم تُطعم شيئا، على أنّ رثائه لم يُخفف من حدة شوقه إلى قتلها، وهمهم قائلاً كم من أفواه الناس سيأكل من لحم هذه السمة ولكن أهذه الأفواه أهل لأكلها؟ لا طبعاً لا ..

وجد نفسه يردد مرة أخرى ليت الصبي كان معي، مر عليه يوم كامل حتى صباح اليوم التالي وهو صابر مثابر والسمة ماضية في طريقها تجرّ خلفها مما جعله يكن لها الاحترام لكنه كان مصراً على أن يظل معها حتى نهاية الصراع.

تصلبت يده اليمنى بسبب التعب والمجهود الذي يبذله مع الحبل الذي يمسك في آخره السمة الضخمة، فأمسك الحبل بيسراه. كان ينتظر أن ينفك تصلّب يده حتى يستطيع أن يجذب الحبل حين يحين الوقت، لكنه كان يخشى أن تسبقه السمة بهجوم مفاجئ لا يستطيع أن يثبت أمامه، وللمرة الخامسة أو السادسة يقول: ليت الصبي كان معي.. وأضاف قائلاً: لو كان هنا لاستطاع أن يدلك لي يدي حتى تنفرج.

شعر بالحبل يغيّر ميله في الماء، كانت السمة ترتفع إلى السطح، فظهرت السمة بطولها الكامل فوق الماء، كانت أطول من القارب بقدمين، عادت السمة إلى الماء ورجعت إلى سرعتها العادية. قال العجوز: إنني لأتعجب لماذا قفزت السمة إلى السطح.. إنها تبدو كما لو كانت تريني مدى ضخامتها، وإنني أعرف الآن الطريقة التي تفكر بها، وأنا أيضاً أريد أن أريها أي نوع من الرجال أنا، فلأدعها تظن أنني أقوى مما أنا عليه.

بعد قليل انفرجت أصابع يده اليمنى فزاد نشاطه وأحس بالثقة وقال مخاطباً السمة: أخبار سيئة لك أيتها السمة ...!

ظل الأمر على ما هو عليه حتى غروب الشمس. حاول أن يتذكر شيئاً أو يستحضر ذكرى تعطيه الثقة. تذكر أيام الحانة في كازابلانكا عندما تبارى في لعبة اليد الحديدية مع الزنجي ثينفوجوس أقوى عمال الرصيف، ظل ساعداهما قائمين نهاراً كاملاً وليلة بطولها، وكان الحكام يتابعون عليهما كل أربع ساعات، وكثرت المراهنات عليهما، وظلا حتى صباح اليوم التالي. ورأى الكثيرون أن يقضى في المباراة بالتعادل لينتهي الأمر ويتوجه كل واحد إلى عمله، لكن العجوز الذي لم يكن يومئذ عجوزاً استطاع أن يُميل ساعد الزنجي حتى ألصقه بخشب المنضدة. وظل بعدها يعرف بسانتياجو البطل مدة طويلة.

علق أحد الدلافين بخطاف واحد من الحبال الصغيرة في مؤخرة المركب انحنى العجوز وهو محتفظ بالحبل الكبير حول كتفه وجذب الحبل الآخر المعلق به الدلفين بيده اليسرى. كان الدلفين يتحرك مرتعشا بعد أن وضعه في المركب ضربه بهراوة على رأسه الذهبية اللامعة فسكنت حركته. خلص الخطاف من فمه ووضع بالخطاف سردينه.

كان الغروب قد اقترب وهو وقت عصيب لكل الأسماك. قال العجوز إن السمكة الضخمة لم تأكل شيئا حتى الآن وهي بجسدها هذا تحتاج إلى طعام وفير.. وقد أكلت أنا سمكة التونة وغدا سأكل الدلفين نظر إلى البحر وخاطب السمكة قائلاً.

إنني بخير وقد تحسنت يدي ولدي من الطعام ما يكفيني ليلة ونهارها اسحبي المركب ما شئت أيتها السمكة.

لكنه كان في الحقيقة يشعر بألم مبرح في ظهره بسبب الحبل المشدود إليه وطرقه الملل حتى كاد يفقد ثقته بنفسه لكنه قال لنفسه مصابراً: لقد مررت بأسوأ من هذا.

ومع انتشار الظلام استلقى العجوز على الأخشاب البالية عند حنية المركب واستراح قدر المستطاع وأخذ يحدق في النجوم. فكر في السمكة الضخمة وكم من الناس يمكن أن تطعمهم قال: إنه لا يوجد من هو أهل لتناول لحمها لما أبدته من وقار ونبل. لكنه كان قد قرر أن الوقت قد حان لمحاولة إيقاف حركة السمكة. استراح لمدة قصيرة كان يعلم أنه لا بد أن ينام بعض الوقت حتى لا يفقد قوته وتماسك أعصابه.

جهز الدلفين الصغير للأكل وسلخ منه شريحتين كبيرتين واستخرج من معدته سمكتين من نوع السمك الطائر وضعهما مع الشريحتين. أكل بعض لحم الدلفين صعب المضغ وقرر أن ينام بعض الوقت. قال لنفسه: سوف يسوء الطقس في مدى ثلاثة أيام أو أربعة سأعود قبل العاصفة.. لكن لا بد أن أظفر ببعض النوم الآن فقد هدأت السمكة والتزمت الصمت.

العجوز يرتكن في غفوة على الحبل ملقياً بثقله على يده اليمنى وراح في النوم لبعض الوقت لكنه استيقظ فجأة بعد مدة عندما اهتزت يده اليمنى هزة عنيفة وارتطمت بوجهه. انحنى العجوز للخلف جاذباً الحبل الذي ألهب ظهره وقفزت السمكة قفزة هائلة فوق الماء وغاصت في المحيط وعاودت القفز مرات ومضت تشد المركب بسرعة عالية فشد العجوز الحبل بأقصى ما يستطيع لكنه ما لبث أن انكفأ على وجهه على شريحة الدلفين الباقية. قال لنفسه: هذا ما كنت أنتظره فلنواجهه الآن.. سأجعل السمكة تدفع الثمن.

كانت لفات الحبل الوافرة تطمئنه وظل يرخي الحبل بوصة بوصة والسمكة تسير مبتعدة. كان الظلام مازال مخيما وكان يسمع صوت ارتطامها بالماء دون أن يراها ويحس برشاش الماء الذي تحدثه بقفزاتها لكنه علم الآن أنها ستحوم في حركات دائرية.

كانت خيوط الفجر تعلن قرب شروق الشمس كان هذا الشروق الثالث منذ أن أبحر.. أحس باقتراب المعركة الحقيقية ووضع يده اليمنى في الماء ليريحها وقال لنفسه إن احتمال الآلام من شيم الرجال فسوف أتحمّل.

أكل السمكات الطائفة التي وجدها في بطن الدلفين حتى يتغذى للمعركة وكان قد أحس ببعض التشويش في ذهنه.

ظلت السمكة تدور والعجوز يتابع ذلك ممسكا بالحبل في إرهاق حتى تصيب منه العرق بغزارة لكن الدوائر ازدادت ضيقا وعرف من ميل الحبل أن السمكة قد ارتفعت بانتظام في أثناء سباحتها ودورانها.

الصيد يصاب بدوار البحر فتكونت بعض البقع السوداء أمام عينيه وكاد يقع من الإغماء لكنه صمم ألا يصاب بالوهن والضعف أمام تلك السمكة وسأل الله العون.

أخذ الحبل يهتز اهتزازا عنيفا أدرك أنها تضرب السلك الذي يقود السمك إلى الشرك وأدرك أيضا أن جرحها الآن يتسع بسبب الخطاف العالق في جانب فمها وقد تتسبب تلك الضربات بإفلات الحبل.. أخذ يرخي لها الحبل مع كل ضربة.

هدأت الضربات فحاول أن يستريح بينما هي تدور بهدوء وحين ارتفعت للسطح ومرت تحت القارب لم يصدق ضخامتها ثم غاصت في الماء مرة أخرى.

كان بعد كل دورة يسترد أجزاء من الحبل أكثر فأكثر. كان واثقا أنه بعد دورتين آخرين سيجد الفرصة ليطعنها بالرمح الذي أعده منذ وقت طويل وكانت لفة الحبال المثبتة بالرمح معقودة الطرف بمربط الحبل بإحكام عند حنية المركب.

نال منه التعب ما نال وجف ريقه والسمكة مازالت في دورانها. كان كلما حاول جذبها لكي يضربها تبتعد في هدوء دون أن يستطيع الوصول إليها. بعد دورات كثيرة لا يحصيها عددا استجمع العجوز قوته واقترب منها ممسكا بالرمح وحين مرت أمامه رفع الرمح عاليا وطعنها به فنفذ الرمح في جنب السمكة خلف الزعنفة الصدرية الكبيرة وانحنى العجوز على الرمح بكل ثقله فتوغل الرمح في لحمها عميقا.

اضطربت السمكة وقفزت وسقطت في الماء محدثة ضجة عالية وانبعث رذاذ الماء

ليغطي العجوز والمركب كله. شعر العجوز بالدوار أطلق العنان لحبل الرمح وجعله ينسحب ببطء شاهد السمكة مستلقية على ظهرها وقصبة الرمح بارزة منها وتحول لون الماء إلى اللون الأحمر بسبب الدم الغزير الذي سال منها كانت السمكة طافية مع الأمواج. قال الصياد لنفسه: ينبغي أن أستعد للعمل الآن فأربطها للمركب وأبحر إلى موطني، فك العجوز حبل الرمح وأنفذه من خياشيم السمكة وأخرجه من بين فكها ولفه حول مقدمة رأسها الطويلة كالسيف وكذلك فعل مع الخيشوم الآخر وعقد أنشودة حول الذيل. تحول لون السمكة إلى اللون الفضي بعد أن كان مزيجا من اللون الأرجواني والفضي وبدأت خيوط جسدها باهتة. أحكم العجوز تثبيت السمكة بجوار المركب بالحبال بحيث بدا أن المركب قد ربط إلى مركب أضخم منه وأبحر العجوز عائدا وهو يفكر أن السمكة تزن حوالي ألفي رطل وخمسمائة رطل.

سار المركب في البحر بهدوء وكانت هناك سحب عالية فوقها سحب رقيق فعلم العجوز أن النسيم سيهب طوال الليل. تأمل العجوز السمكة الكبيرة غنيمته الغالية وظل في سعادته ساعة قبل أن تلطم فرحته أول سمكة من أسماك القرش.

لقد أثارته سحابة الدم التي انسابت من السمكة الضخمة وانتشرت على عمق ميل تقريبا فأسرعت القروش بالصعود بلا حذر وبقوة. كان القرش المهاجم قويا من النوع الذي لا يرهب شيئا ويفعل ما يريد بالضبط علم العجوز ذلك حين رأى القرش. أخذ العجوز يعد رمحه الذي أصبح حبله قصيرا بعد أن قطعه ليربط به السمكة. كان العجوز في أحسن حالاته وقد صفا ذهنه لكنه كان يعلم أن أمله ضعيف خاطب نفسه قائلا: ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل في النفوس.

هجم القرش ونهش من جسد السمكة قطع كبيرة في نهم.. استعد العجوز وحين اقترب القرش مرة أخرى طعنه بالرمح طعنة قوية. علم العجوز أن القرش قد مات لكنه كان قد تناول ما يقرب من أربعين رطلا من اللحم بل وأخذ الرمح معه مغروسا في رأسه. وأخذت دماء السمكة تسيل بغزارة لتجذب أسماك قرش أخرى على هذه الوليمة.

كانت آماله تضيق لكنه قال لنفسه: فكر في شيء بهيج أيها العجوز فكل دقيقة تمر تقترب من البيت وأنت تبخر خفيفا بعد أن فقدت السمكة بعض وزنها.

تطلع العجوز إلى رأس السمكة وأخذ التفكير بينما المركب منطلق في هذا الطقس

المنعش عاوده بعض الأمل فقال لنفسه: نعم إن اليأس خطيئة أخذ قطعة من لحم السمكة ليتذوقها علم أنها من أطيب الأسماك وفكر في الربح الذي ستدره عليه.

كان ذلك حين لمح سمكتي قرش من ذلك النوع ذي الأنف الشبيه بالمجرفة انقض القرشان على الوليمة الضخمة ينهشان منها. أعد العجوز من المجداف والسكين سلاحا يستطيع أن يطعن به لمح رأس القرش الأول فسد طعنة إلى موضع مخه ثم طعنة أخرى في عينه فغاص في البحر وهو يقضم قطعة أخيرة.

وكان القرش الآخر يعيث فسادا في لحم السمكة فتوجه العجوز نحوه بضربة لكنها لم تكن قوية بما يكفي ولم تنغرس فيه لكنه سرعان ما وجه له طعنتين صائبتين وتخلص العجوز من القرشين بعد أن أتبيا على ربع السمكة كان يعلم أنه مازال أمامه أشياء أخرى ليقاومها لأن الدماء المنسكبة من السمكة كانت ممتدة على نطاق عريض يجذب القروش جاء قرش آخر كان في قتله انقصاص السكين السلاح الوحيد الفعال الباقي. لم يبق معه إلا خطاف الأسماك الثقيلة والمجدافان وذراع الدفة وهراوة قصيرة، كانت الظهيرة قد مضت وازداد هبوب الرياح فأمل أن يكون البر قد اقترب وكان قد بلغ به التعب كل حتى قبيل الغروب لم تعاود القروش هجومها ثم رأى الزعانف البنية المثلثة تتجه مباشرة نحو القارب. كانا قرشين رشيقين ظلا يحاولان وينهشان من السمكة حتى استطاع أن يثخنهما بالجراح ويطردهما عن السمكة بعد أن ذهب نصفها.

أخذ العجوز يحادث السمكة ويقول: ليتنا حاربنا القروش بسيفك الذي في مقدمة فمك.. ولكني لا أملك بلطة لقطعه.. ولكن كم قتلنا من القروش وأوجعناها. ثم قال: سأحاربها حتى يدركني الموت.

كادت أعضاؤه تتجمد من شدة برد الليل وآلمته جروحه بل كل أجزاء جسمه بسبب هذا المجهود الخارق الذي قام به. لمح وهج بعض الأضواء من بعيد فانتعش بعض الشيء لكن مجموعة أخيرة من القروش هاجمت المركب وأتت على ما بقي من السمكة ولم تُجد مقاومة لها نفعا فعاد العجوز بمركبه خفيفا وقد تجمدت مشاعره.. لقد غلب على أمره.

عاد للشاطئ وربط المركب وحمل الصاري لم يكن أحد على الشاطئ ليراه وكان التعب قد هذه وكاد يسقط لكنه استراح في الطريق عدة مرات حتى وصل لكوخه القديم فسحب بطانيته وغطى نفسه ورفع يديه فوق رأسه ونام جاء الصبي في الصباح فنظر من

النافذة وحين لمح يدي العجوز وما أصابهما بكى. انطلق ليأتي له بالقهوة وبعض اللبن ورأى الصيادون هيكل السمكة الناصع وأخذ بعضهم يقيس طولها. عاد الصبي للعجوز بالقهوة وأخذا يتحادثان. كان الصبي قد قرر أن يصيد مع العجوز بعد ذلك ويترك من يعمل معه حتى ولو رفض والداه وقال: أمامي الكثير الذي أتعلمه منك. انصرف الصبي وواصل العجوز نومه ليستريح بعد رحلته الشاقة مع البحر.